الألسنية، وأبياتا شاردة يتناقلها الناس ويحفظونها حكما وشواهد، ويتعلق بعضها بالخيال، ويؤثر عمود الشعر عند الجرجاني ما كان مطبوعا سهلا ، قريب المتناول، يُصيب الوصف، ويقصد الغرض من سبيل صحيح.[36]

فنلاحظ مما سبق أن الجرجاني قد تحدث عن عناصر أو خصائص عمود الشعر بشكلّ عام فلم يحصرها في الشعر الجاهلي كما فعل الآمدي، وانما هو يحدثنا عن عمود الشعر الذي يعني مجموعة عناصر الشعر ومقوماته الأساسية التي لا يقوم إلا بها في الشعر القديم والشعر الحديث.

المحاضرة الرابعة: قضية اللفظ والمعنى:

تعد مسألة اللفظ والمعنى من المسائل الكبيرة التي شغلت النقاد القدماء ، فقد اعتبرت من أهم القضايا التي شغلت النقاد العرب القدامى، وقد اختلفت وجهات النظر حول هذه القضية، منهم من يرد أهم مقومات العمل الأدبي، وأقوى دعائم نجاحه، الى المعنى مقللا من شأن اللفظ في ذلك، ومنهم من يردها الى اللفظ ومنهم من يسوي بينهما ،ولعل المحفز لهذا الجدال هو الإعجاز القرآني ،وارتباط الفكر النقدي والبلاغي بمضامينها بوصفه عربيا إسلاميا ، فكان النزاع محتدما في أي منهما يكمن الاعجاز ، في اللفظ وتأليفه ، أو في المعنى ودلالته ، أو بهما معا أو بالعلاقة المتولدة عنهما.

وقد عُرفت عند اليونان قديما،فقد كانت نظرية (المثل) الأفلاطونية من مظاهر هذه القضية، حيث يرى أفلاطون أنَّ للأشياء المتغيرة أصولا ثابتة كاملة في عالم المثل، وأنَّ للموجودات عنصرين (الهيولى والصورة)، أي مادة غفل لا شكل لهان وصورة تمنح هذه المادة شكلها.

كما عرفت كذلك في التراث النقدي والبلاغي العربي مثلا لدى

و **الجاحظ** على رأس النقاد الذين احتفلوا بالألفاظ، ولذلك نجده يرد على أبي عمرو الشيباني الذي يقدم المعنى فيقول: « وذهب الشيخ الى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع؟ وجودة السبك، فإما الشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير» [2].

وجليٌّ أنَّ الجاحظ هنا ينتصر للفظ، ويجعل له الشأن في الشعر، ولعلَّ ذلك من عجائب الأمور، إذا ما علمنا بأنَّ الجاحظ رجل معتزلي والمعتزلة،كما هو معروف عنهم يهتمون بالمعاني العقلية المنطقية التي تعينهم على أداء مقالاتهم والبرهنة على حججهم، ومن ثمَّ إقناع خصومهم، وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: لا ريبَ في أنَّ الجاحظ فهم المعنى كما فهمه المعتزلة، وهو المعنى العقلي المنطقي، غير أنَّه لم يقتنع بأنَّ

[2] الحيوان 131/3- 132.

هذا المعنى العقلي المنطقي يصنع شعرا، فكأنَّه قال لابدَّ من أن يكون الشعر في العنصر الآخر، وهو اللفظ. واللفظ عند الجاحظ لا يعني أصوات الحروف فقط، وإنَّما يعني المعنى الشعري، الذي يقابل المعنى العقلي.

ابن قتيبة (ت 276هـ) :

وكان ابن قتيبة من الذين يفصلون فصلا حاسما بين اللفظ والمعنى، ومن الذين يرون مجيء المعنى الحسن في اللفظ الردئ، بعد أن قسّم الشعر على أربعة اضرب: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، وضرب حسن لفظه وقصر معناه، وضرب جاد معناه وقصر لفظه، وضرب قصر فيه اللفظ والمعنى. [3]

وهذه قسمة عقلية منطقية استوفى فيها ابن قتيبة جميع الممكنات. ويبدو أنَّ بيئة الفقهاء قد أثرت في ابن قتيبة فجعلته يريد من المعنى أن يكون حكمة أو قولا صالحا، ينتفع به الناس، ويتضح ذلك من خلال الأمثلة التي اختارها للضرب الذي جاد معناه وحسن لفظه، ومنها:

أيتها النفس أجملي جزعا إنَّ الذي تحذرين قد وقعا

ومنها أيضا:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تردُّ إلى قليل تقنعُ

وكذلك يتضح موقفه من هذا الأمر من خلال الأمثلة التي اختارها للضرب الذي جاد معناه وقصرت ألفاظه، مثل:

ما عاتب المر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالحُ

ثمَّ أنَّ ابن قتيبة لا يرضيه المعنى الشعري الذي ليس فيه فكرة توجبه وإرشاد، لذا نراه يقول في هذه الأبيات:

فلما قضينا من منى كلَّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسحُ

وشدّت على حدب المطايا رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ

إنَّها«أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع» [4]، غيرَ أنَّه ليس تحتها معنى مفيد. ويبدو أنَّ خير الشعر لدى ابن قتيبة، هو المعنى النافع المفيد الذي يؤدى بصياغة قوية متماسكة.

[3] أنظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر: 64/1، 65.

ابن طباطبا (ت 322هـ):

أمّا ابن طباطبا فلم يخرج عن دائرة الفصل بين اللفظ والمعنى إذ يقول:«وللمعاني ألفاظ تشكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي كلها كالعرض للجارية الحسناء التي تزداد في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن، قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه[...] وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها، ولو جلبت في غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها.» [5]

هذا نصٌّ واضح الدلالة في الفصل بين اللفظ والمعنى، ومقتضاه أنَّ المعنى يوجد ثمَّ تجيء الألفاظ لتدلَّ عليه. وربّما قصرت هذه الألفاظ في الدلالة، غير أنَّ المعنى باقٍ كما هو، فمن الأولى أن تجيء الألفاظ مشاكلة للمعاني.

قدامة بن جعفر (ت 337هـ):

ثمَّ جاء قدامة بن جعفر ووقف عند قضية (اللفظ والمعنى) وفصل بينهما منذ أن عرّف الشعر بأنَّه:« قول موزون مقفى يدلُّ على معنى» [6]، ومنذ أن قال. أيضا:«المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة.» [7]

وهنا يتبين الأثر الأرسطي في قدامة، ذلك بأنَّ أرسطو كان يرى أنَّ الموجودات تتألف من عنصرين: هيولى أو مادة، وصورة تمنح هذه المادة شكلها...، غير أنَّ قدامة الذي فصل بين اللفظ والمعنى لم يعتنق هذه الفكرة الأرسطية ابتغاء التوحيد بين اللفظ والمعنى، أي أنَّه لم يجعل الاثنين شيئا واحدا، وإنَّما أراد أن يقول: إنَّ المعاني معروضة للناس، وإنّما الفضل لمن يمنح هذه المعاني الصورة التي تصير بها شعرا.

عبد القاهر الجرجاني: وقد جاء بعد اصحاب هذه المذاهب جميعاً، وقد استفاض كلامهم فيها، وجدلهم حولها، فاجتمعت لديه آراؤهم، وأفاد من خبرتهم، ولكنه تجاوزهم الى رأي خاص، وكانت له في هذا المجال أصالة وتعمق، وكان صاحب مدرسة في النقد، أدرك فيها ما لم يدرك النقاد، ونستطيع ان نلخص ما قاله عبد القاهر في هذه القضية فيما يأتي [8].

أولاً:-

---

[4] الشعر والشعراء:66/1.

[5] **عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق: طه الحاجري و محمد زغلول سلام:8.**

[6] نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى:11.

[7] المصدر نفسه:13.

[8] راجع مقدمة تحقيق دلائل الإعجاز للدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي ص21 ما بعدها ط مكتبة القاهرة.

1- يرى عبد القاهر أن اللفظ رمز لمعناه، وهو في ذلك يتلاقى مع كل النقاد العالميين القدامى والمحدثين، ومع مدرسة الرمزية في اللغة، فالكلمة رمز للفكرة أو التجربة أو العاطفة أو المعنى، وقيمتها فيما ترمز إليه، وليست في البلاغة وحدها.

2- العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ هي في رأي عبد القاهر موطن البلاغة، وهي ما عبر عنه بالنظم وما يعبر النقاد عنه بالشكل أو الصورة، فمن مجموعة العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة، وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية.

3- ولا يغفل عبد القاهر أهمية المعاني الثانوية ودلالتها الجمالية في النص الأدبي، سواء كانت هذه المعاني الثانوية لزومية، أو من مستتبعات التراكيب، أو أثراً لرموز صوتية، وإيحاءات نفسية، فهي التي تعطي الأسلوب دلالاته البلاغية، وتمنحه قيمة جمالية .

ثانياً: من كل هذه القيم صاغ عبد القاهر فلسفته البلاغية التي جعل محورها نظريته في النظم التي ربط فيها بين اللفظ والمعنى وبين دلالات الألفاظ الأسلوبية ودلالتها الثانوية وجعل النظم وحده هو مظهر البلاغة ومثار القيمة الجمالية في النص الأدبي.

وكل ذلك هو أساس فكرة عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز الذي شرح فيه نظريته في النظم، وعرض للتطبيق الأدبي عليها، وجلاها في الكتاب في أجلى صورة وأوضح بيان.

وفكرة النظم تقوم على الألفاظ ولا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمات مفردة، ولكنها تتفاضل في ملاءمة معانيها للمعاني التي تليها في السياق الذي وردت فيه، وأن اللفظة قد تروق وتحسن في موضع، وتثقل وتوحش في آخر، وان التأمين والنظم هو وحده الذي يحدد ملاءمة الكلمة و عدم ملاءمتها بالنسبة لما قبلها وما بعدها يقول في ذلك:«وهل يقع في وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن، وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها؟" " وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فتجلي لك منها الاعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرية إلا لأمر يرجع الى ارتباط هذه الكلمة بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف الا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وهكذا الى ان تستقر بها الى آخرها، وان الفضل تناج ما بينها، وحصل من مجموعها»

«وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة من تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر ما قبلها، ولا الى ما بعدها. وكذلك

فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بيا دون أي نحو يا أيتها الأرض ثم إضافة الماء الى الكاف دون أن يقال ابلعي الماء، ثم ان اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل وغيض الماء وجاء الفعل على صيغة فعل –المبني للمجهول– والدالة على أنه لم بعض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله تعالى: (وقضي الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودي) ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة، افترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤها بالإعجاز روعة، وتحضرها عند تصورك هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في المنطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟». [9]

وبهذا تكون قد نضجت على يد عبد القاهر قضية اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون، أو الفكرة وقالبها الفني، وإن رأيناه –كسائر نقاد العرب– لم يتجه الى فكرة وحدة العمل الأدبي باعتباره كلا، وإنما قصد الى الصورة الأدبية المفردة، التي يتكون العمل الأدبي من مجموعها.

حازم القرطاجني (ت 684هـ):

أمّا حازم القرطاجني فلم يعنَ بقضية (اللفظ والمعنى) كعناية من سبقه، ذلك بأنَّه أكد أهمية (التناسب) بين أركان العمل الشعري وأثره في إحداث التأثير في المتلقي أو ما يسمّى بالتخييل الشعري. ومن الأسس التي تقوم عليها فكرة (التناسب) عند حازم القرطاجني، هي مسألة التركيب اللغوي للصورة المتخيلة، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال التناسب بين اللفظ والمعنى، فإنَّ أفضل الشعر هو ما أوقع مبدعه نسبا فائقة بين معانيه وصوره، ولابدَّ من أن يؤثر مثل ذلك في المتلقي أكثر من غيره. ويقول حازم في ذلك:« واعلم أنَّ النسب الفائقة إذا وقعت بين هذه المعاني المتطالبة بأنفسها على الصورة المختارة[...] كان ذلك من أحسن ما يقع في الشعر» [10]

ولعل أبرز ما أتى به حازمٌ في هذه القضية – وإن لم يكن أول مَن نحا هذا النحوَ فيها – تأكيدُه على فكرة التناسب المبدئي، بكون القصيدة تركيبًا متناسبًا من مستويات متنوِّعة، ترتد إلى معانٍ وأساليب مصوغةٍ في ألفاظ تتلاحم في نظام جامع لشتات مركب من أغراض، [11]

والذي لا يرتقي إليه الشكُّ هو أن فكرةَ التناسب هذه لا يمكنُ أن تتم ألبتة إلا من خلال التناسب بين اللفظ والمعنى.

---

[9] دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص93 وما بعدها.

[10] **الشعر والشعراء:1/66**.

[11] الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، اتحاد كتاب العرب، دمشق – 2001، ص222.